

الديرية أسبابها ونتائجها

عرض عام للدور الاجتماعي والثقافي الذي لعبه نظام الديرية في تاريخ العالم.

بقلم

الدكتور ج. ج. كولتون Dr. Litt. كورتوم

المضو بكلية سانت جون بكبريدج

ومؤلف كتاب : دراسات تاريخية في العصور الوسطى ، وكتاب : من القديس

فرسيس إلى دانتي ، وكتاب : خمسة قرون دينية ... الخ

ترجمها إلى العربية

الدكتور جمال الدين الشيال

أستاذ التاريخ الإسلامى بجامعة الاسكندرية



الديرية : أسبابها ونتائجها^(١)

دعرض عام للدور الاجتماعي والثقافي الذي لعبه نظام الديرية في تاريخ العالم ،

بقلم الدكتور ج. ج. كولتون Dr. Litt. ج. كولتون

المترجم بكلية سانت جون بكمبريدج ، ومترجم كتاب : دراسات تاريخية في العصور الوسطى ،
وكتاب : من القديس فرنسيس إلى دانتس ، وكتاب : خمسة قرون دينية ... الخ

ترجمها إلى العربية

جمال الدين الشيبان

الديرية نظام عريق في القدم ، قد يصل في قدمه إلى عصر ما قبل التاريخ ،
فقد وجدت دائماً أقليات صغيرة من الرجال والنساء تجرد في العزلة والتأمل
الحالة التي تلائمها وتناسب طبيعتها ؛ وقد وجد هذا النظام له أتباعاً في الشرق
في وقت مبكر ، ثم أصبح له في كافة بلاد الشرق كيان موطن الأركان
باعتباره بالديانة البوذية ، وهذا الفصل يقتصر على دراسة الديرية المسيحية
بوجه خاص .

لم تكن المسيحية ديناً فيه مراعاة للأوضاع الاجتماعية العادية والتقاليد
المرعية ، إلا أنه عند ما أفلح المسيحيون الأوائل شيئاً فشيئاً عن التفكير
في أن عودة المسيح وشيكة الحدوث ، فقد أصبحوا ولا مناص لهم
من أن يختاروا بين ما كان يلتزمه المؤمنون الأول من تعلق متشدد بالحياة
الآخرة ، وبين أن ينتهجوا سبيلاً لينة تتفق مع طبيعة بشرية لم تعد تتوقع
القضاء المفاجئ على هذه الحياة الدنيا ، وسرعان ما قامت حدود واضحة
فاصلة بين العقول المتشددة والعقول المرخضة ، وفي مصر حيث كان التباين
بين الفريقين على أمواه ، لا نلث أن نجد بدور النظام الديرى .

(١) هذه ترجمة للفصل ٨٤ من الموسوعة التاريخية :

The Universal History of the World. Edited by : Sir J. A. Hammerton.

كانت الاسكندرية إحدى المدن الكبرى في الامبراطورية الرومانية ، وكانت من أوفر مراكز العالم نشاطاً اقتصادياً وعلمياً وأديباً وفتياً . وكانت الاسكندرية ، لا روما ، المركز الثاني للفكر المسيحي بعد بيت المقدس على مدى أجيال طويلة ، ورغم هذا فقد كانت تسود فيها كل شرور المدينة الكبيرة ، وبالقرب منها تمتد الصحارى تنخلها واحات مهياة على نحو رائع لحياة العزلة والتوحد ؛ وهناك اعتزل حوالي عام ٢٥٠ م أنطونيوس وبولا ، أقدم من عُرف من التناك المسيحين ، واجتذبت حياتهما الزاهدة أناساً عديدين فسلكوا طريقهما ، وما لبث أن ازداد عددهم عند ما رفع الامبراطور قسطنطين المسيحية إلى مرتبة الدين الرسمي لجميع الامبراطورية الرومانية ، وبذلك أمدها بفيض عظيم من القوة السياسية ، غير أنه جعل مشكلة التعلق بالحياة الأخرى أكثر حدة .

على أن النمو السريع لحياة الزهد حتم تجمع هؤلاء الزهاد ، لأنهم يمكن من الممكن للجموع أن يحيا حياة فردية نقية .

القراقرم الأولى للبيعة البرية : وفي عهد القديس جيروم S. Jerome (المتوفى عام ٤٢٠) نجد الرهبان يعيشون فعلاً في مجتمعات منظمة ، وقد وضع باخوميوس حوالي عام ٣١٥ قانوناً لهذا النوع من الحياة المنظمة ، وبعد نصف قرن وضع القديس باسيليوس S. Basil قانوناً قامت الديرية الشرقية على أسسه إلى حد كبير ، وما زالت تستند إليه حتى اليوم .

ويجربنا بالاديوس Palladius - الذي كتب تاريخه المعروف باسم "Lausiac History" (١) حوالي سنة ٤٢٠ - أنه وجد خمسة آلاف راهب في صحراء النطرون Nitra ولم يكن بينهم غير ثمانية قس ، منهم واحد فقط كان يقوم عادة بمراسم تقديم القربان المقدس .

(١) بالاديوس مؤرخ يوناني ظهر في القرن الرابع الميلادي ، ويعتبر من أقدم من أרך لكنيسة أوائل ظهورها ، واشتهر بكثرة أسفاره إلى مواطن الرهبان والتناك في أنحاء الإمبراطورية الرومانية ، فاستطاع أن يعطى صورة جلية عن المظهر النفسي للكنيسة في مصر والشام ، وتاريخه المعروف باسم Historia Lusiana أهداه إلى Lausus رئيس البلاط الإمبراطوري في زمنه (المترجم)

صومعة راهب قبلي

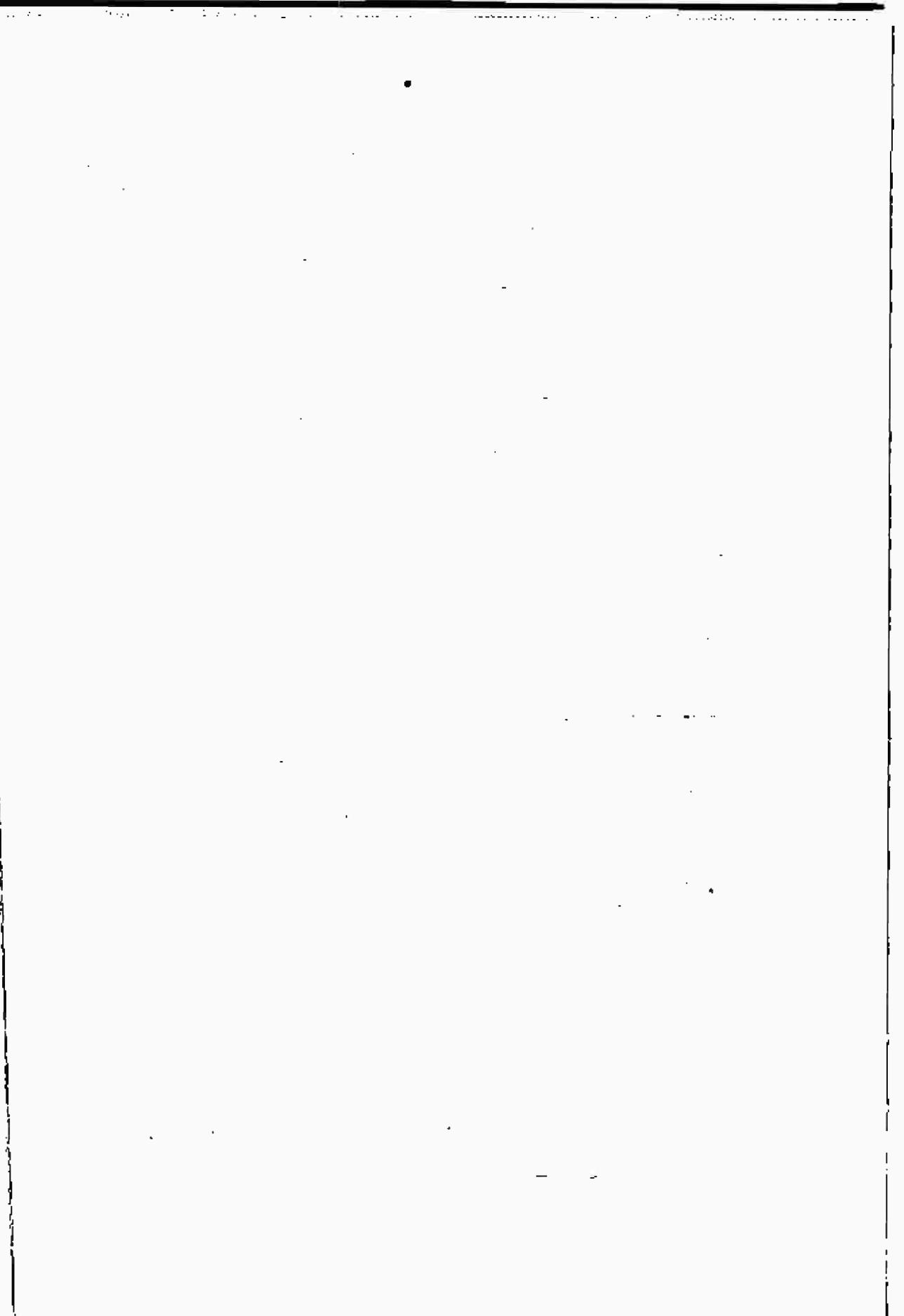


اكتشفت هذه الصومعة في سفح جبل قرب العرابة المأهولة سنة ١٩٢٢، وهي تتكون من : محراب، وغرفة للسكن بها ذكاة للنوم، وحوض من الصخر المنحيت، وموقد من الحجر . وخارج الباب كانت توجد مشكاة للمصباح وكان يحيط بالباب والنافذة الصليبان والتقرش المكتوبة.

جنون الحماسة الدينية



حملت الحماسة والعصية الدينية بعض التماسك والمتعبدن إلى مبالغات بعيدة من العقل ، ويظهر هذا بصفة خاصة عند المموديين Styloï الذين كانوا ينصبون أنفسهم فوق الأعمدة ويمشون حياتهم كلها هناك بعيدا عن البشر ، وهذه صورة من « تاريخ الشهداء للإمبراطور بازيل الثاني » توضح النظام الذي فرضه على نفسه انتدسيس دانيال الممودي "S. Daniel the Stylite"



ويستطيع القارئ اليوم - اعتماداً على هذا المرجع التاريخي وعلى أمثاله من المجموعات المعاصرة والشبية بالمعاصرة - أن يكون فكرة سليمة عن الديرية الشرقية في أوائل عهدها في مظهرها التاريخي والاسطوري .

وتجمعت كل هذه الآثار في مجلد ضخم معروف باسم « حياة الآباء Vitas Patrum » أصبح يعتبر في الغرب اللاتيني عملاً كلاسيكياً ؛ ومن اليسر الاطلاع على النص الشرقي لهذا المجلد في الترجمة الانجليزية التي قام بها « سير أرنت واليس بديج Sir Ernest Wallis Budge » تحت عنوان : « فردوس الآباء - The Paradise of the Fathers » ، وهو كتاب لا يمكن الاستغناء عنه عند دراسة الحياة الديرية في عصورها الأولى .

ولكننا نلاحظ أن الديرية الشرقية كانت أقل تدخلاً في التاريخ السياسي والاجتماعي من مثلها في الغرب .

وأخذت حركة الديرية تنتشر غرباً ، فالمعروف أن عدداً من الأديرة الكنتية الأولى كانت وثيقة الارتباط بالنظام القبلي ، ويمكن تتبع الأديرة في إيطاليا وفرنسا منذ عام ٣٦٠ ، ففي أوائل القرن السادس نجد ثلاثة نظم ديرية غربية قام على تكوينها : قيصر يوس الأريلى Caesarius of Arles ، وكاسيودوروس Cassiodorus ، والقديس بندكت St. Binedict ، وبعد النظام الثالث أكثرها فاعلية وتأثيراً ، وسرعان ما أصبح هو النظام الوحيد المعترف به لدى رهبان الغرب .

ولد القديس بندكت في أسرة لها مكانتها ، ثم تلقى دراسته الأولى في روما ، غير أن شرور هذه المدينة أثارت شعوره ، وقد كتب مؤرخ سيرته القديس جريجوري St. Gregory يقول « إنه احتقر في تلك المدينة الدراسات الأدبية فرحل عنها جاهلاً بهذه الدراسات عن عمد » ولجأ بندكت أول الأمر إلى كهف ، وعاش فيه حياة قاسية حتى حسبه الرعاة وحشاً غريباً .

وحدث آخر الأمر أن الدير المجاور لهذا الكهف اختار هذا الزاهد الغريب ليكون رئيساً له ، غير أنه لم يلبث أن غادر رهبانه قائلاً لهم : « اختاروا لكم

رئيساً آخر تتفق حاله مع أحوالكم ، وتقاطر المریدون من جديد على كهف القديس بندكت فصفهم إلى جماعات صغيرة ، تتألف كل منها من اثني عشر راهباً عليهم رئيس ، وهو رقم أصبح مقرراً. فبما بعد ، لا في النظام البندكتي فحسب ، بل في النظم الديرية الأخرى ، فكل مجتمع يتكون من ثلاثة عشر فرداً على الأقل أُصطلح على أن يطلق عليه اسم « مجتمع ديرى أو رهبانى .
 « Conventual

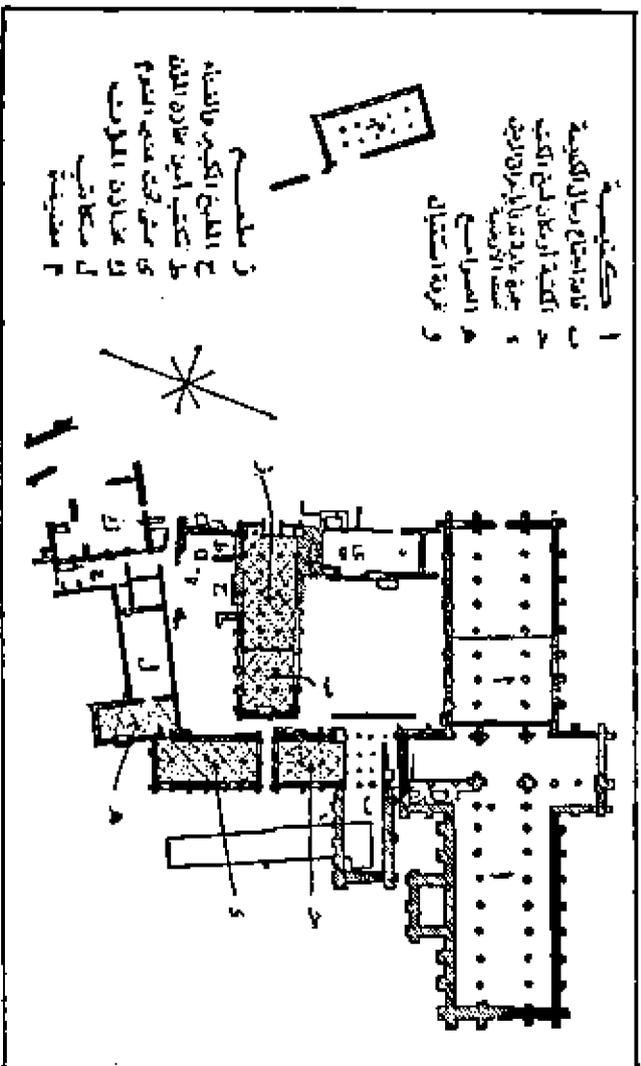
على أن ما لقيه هذا الزاهد من نجاح لم يقابله إلا اضطهاد رجال الدين الأكثر ترحفاً ، ولكن النصر في النهاية كان للقديس بندكت ، فأصبح متعارفاً على أن ديريه في مونت كاسينو Monte Cassino - القائم على تل بين روما ونابلى - هو حاضرة الديرية الغربية .

والنظام الذى وضعه القديس بندكت عمل ممتاز امتزجت فيه القوة بالفضة والحصافة ، وكل من سلك هذا الطريق يجب عليه أن يلتزم هاتين الصفتين في جدية كاملة ، وإخلاص تام ، فالنظام ليس إلا « القانون الذى اخترت أن تحارب بمقتضاه » ففى أمره الإنسان وقبله ينبغى ألا يتشكك فيه أو يناقش سلطة الرئيس ؛ فريئس الدير يقوم مقام المسيح فى قيادته لتلاميذه ، وفى رعايتهم والحذب عليهم ، وهذا التأكيد على الطاعة يبرره ما انطوى عليه النظام ذاته من الاعتدال وعدم الصرامة .

وإنا لنلاحظ أنه لم يكن من منهاج القديس بندكت أن يقيم طائفة من القسس والدارسين ، بل إنه من المحتمل أنه لم يكن يتطلع مطلقاً إلى إقامة « طريقة » بالمعنى المفهوم .

وكل ما فعله أنه وضع نظاماً لنفسه ولجتمعه الصغير قام على أساس من التجربة الناضجة ، والآراء الحكيمة ، والتعاطف الإنسانى الحقيقى ، مما جعل نظامه يصمد لتجارب قرون عديدة، وما جعل قدره كبيراً منه يظل باقياً برغم كل ما فرضته الأحوال الحديثة من قيود .

أدرك القديس بندكت أن الدير ليس إلا مجتمعاً مكثفاً بذاته ، فينبغى إعداد المباني بحيث تضم كل الأقسام والمخازن الضرورية . والفصل السادس



رسم تخطيطي للبرصانت ماري في بورك

كانت كل الأديرة تبنى وفق خطوط عامة شائعة . وكانت الكنيسة بحماية القليب أو البروز الرئيسي في الموزعة كلها ،
 وفي الواجهة الجنوبية من المذبح تقع في المادة القلايات أو الصومع ، وعلى الجوانب القلايات الأخرى كانت تصطف الجان
 القسوسة قبة البرية للصومع الكبرى ، أما غرف الصوم فكانت تقع في الجانب اليسرى ، وتجا وراء القلايات يقع
 المذبح والكتاب وتصل بها أيضا قاعة الأكل ، وفي المذبح اليمين كانت ماري في بورك كانت دار القضاة تشمل
 حتى متصلا .

والستون من القانون الذى وضعه ينص^١ على أنه لا يسمح لأى راهب - فى الأحوال العادية - بمغادرة حرم الدير ، ولقد فر الشارحون الأول هذا النص تفسيراً مزمناً غاية التزمته . فكان على الراهب أن يحيا داخل هذا الحرم حياة أشبه ما تكون بحياة الفلاح الايطالى المعاصر للقديس بندكت ، فعليه أن يرتدى نفس الرداء الرينى الحشن بقلنسوته ، ونحته قباء من الصوف ، وأن يكون مقلا فى استعماله للخمر (لم يكن الامتناع عن المسكر معروفاً فى العصور الوسطى) ، وألا يأكل اللحم إلا فى حالات المرض ، وأن يدأب على العمل طوال النهار ، وأن ينال قسطاً معتدلاً من النوم فى الليل .

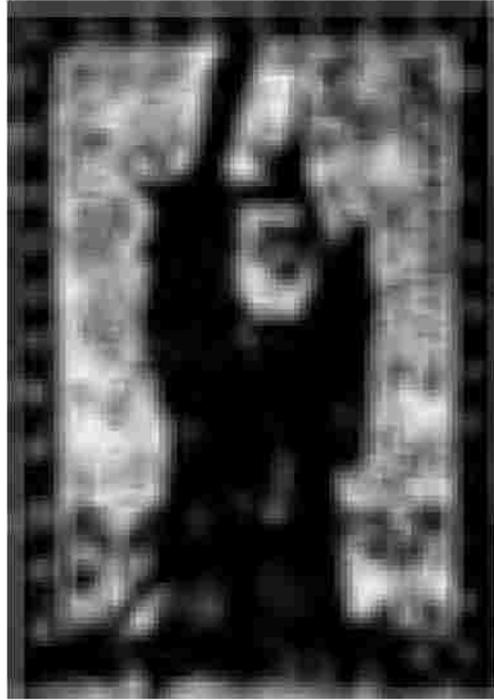
على أن أعمال الراهب تختلف دون شك عن أعمال الفلاح ، فمن عمله ما يقوم بتأديته يدوياً فى الحقل أو الحديقة أو المطبخ ، ومنه جانب عقلى ، فقد فرض القديس بندكت أن يمضى الراهب ثلاث ساعات فى القراءة يومياً ، إذا لم يكن أمياً لا يعرف القراءة والكتابة ، وكان من الواجب على الراهب كذلك القيام بالصلاة العامة لمدة نحو أربع ساعات ، فضلاً عن الصلاة الفردية أو التأمل الذى يفرضه الفرد على نفسه ؛ أما القداس فكان يقام عادة فى أيام الآحاد وفى الأعياد الدينية الكبرى ، ولهذا لم يكن بين البندكتيين الأول - مثلهم فى ذلك مثل الرهبان فى صحارى المشرق - غير نسبة ضئيلة من انقسس .

كذلك كانت حياة الراهب الصالح - فى نواح أخرى - أقمى من حياة الفلاح ، لأن قوانين الرهينة كانت تفرض عليه الصمت ، ولم يكن المقصود الصمت التام ، ومع هذا فإن المصلحين المزمتهن كانوا يفسرونه على هذا الوضع ، غير أنه كان يطلب من الراهب على الأقل أن يتحاشى المحادثات العامة سواء فى مكان عمله أو فى أى مكان آخر ؛ أما غرفة المحادثة *Parlatorium* التى كان يباح استعمالها لأوقات معينة أثناء النهار فهى تمثل تطوراً جاء متأخراً فى نظام الديرية ، وحدث هذا التطور فى وقت كان الرهبان فيه - على الرغم من هذا الصمت المفروض عليهم - يخضعون لدافع الطبيعة البشرية ، فأصبحوا يشغلون أنفسهم بجمع أخبار الأحداث الجارية ونقلها ، ولكن الشئ الذى لا شك فيه هو أن القديس بندكت لم يكن يجيز الثرثرة والمجون ،

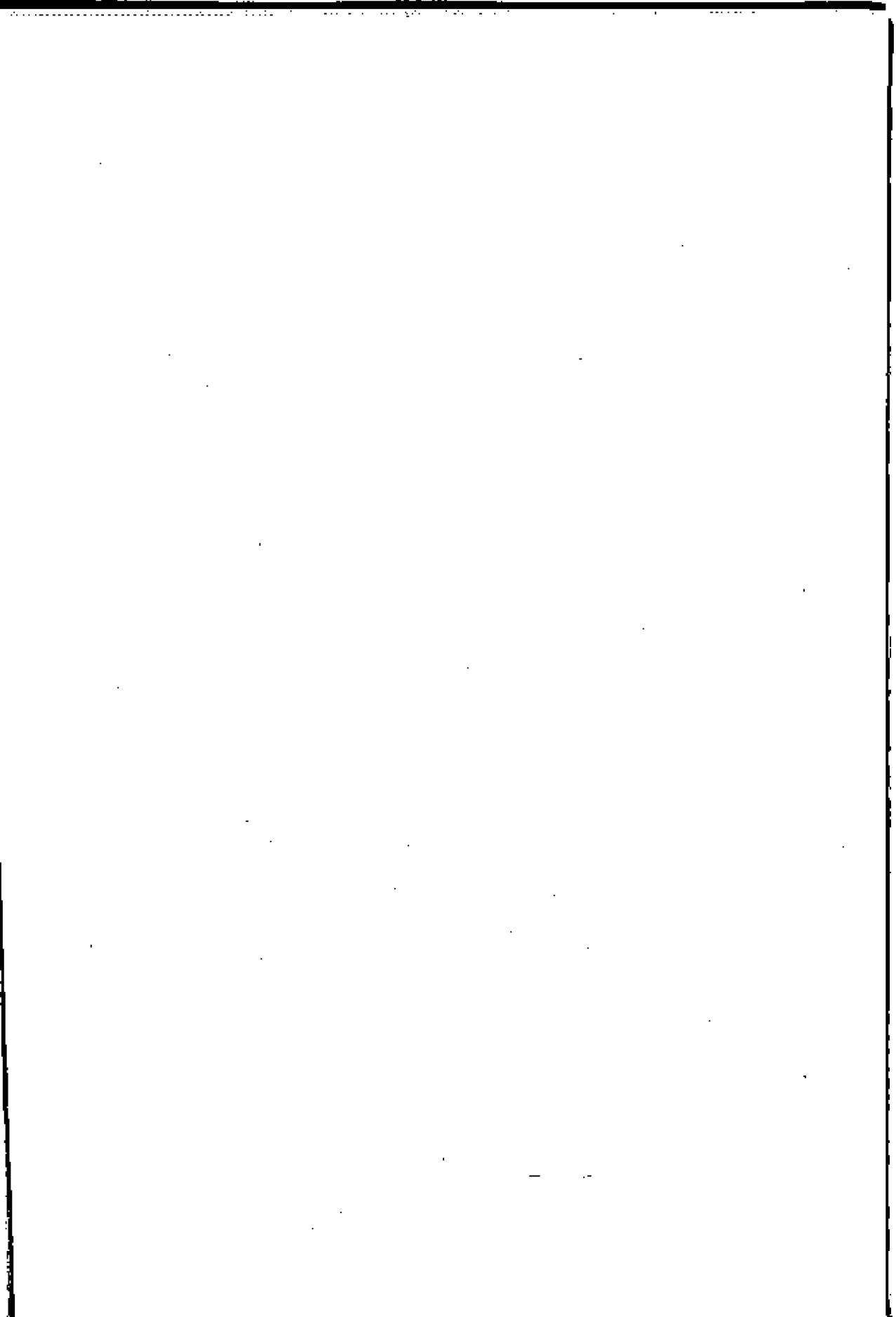
فهو في الفصل السادس من قانونه لا يمنع فقط الكلمات المثيرة للضحك ، بل يمنع كذلك لغو الحديث ، أي ذلك الذي لا يهدف إلى التهذيب بشكل قاطع .

وأخيراً فإن الخطوات الثلاث المثالية التي فرضها القديس بندكت لإنكار الذات ، وتطلب أن يتحلل بها الرجل الصالح ، هي : الطاعة ، والفقر ، والتهارة ، وكانت تعد في العصور الوسطى الأمور الثلاثة الأساسية التي بدونها لا يمكن أن تقوم الديرية الصحيحة ، وكان من المنطق عليه أن البابا ليس له الحق في إعفاء الراهب من الأمرين الأخيرين ، أي : الفقر والتهارة ، إلا إذا استطاع - كما قال البعض - أن يحرم ويزيل جميع العهود والالتزامات ، ويحوّل الراهب عن رهبانيته .

والفقر من وجهة النظر الشخصية يجب أن يكون مطلقاً ، والراهب يرتكب إنمأ كبيراً إذا ادعى لنفسه ملكية خاصة ، مهما تضاءل شأنها ، كأن يدعى ملكية قلم أو غيره من الأشياء ، ولكن لم يكن هناك ما يمنع إغداق العطايا على الرهبان بوصفهم جماعة ، وقد أغدقت عليهم فعلا الهبات الوفيرة ، وكانت النظرية تنص إلى وقت متأخر على أنهم يستحوذون على هذه الأموال باعتبارها وفقاً يصرف منه لصالح الآخرين ، ومع هذا فإن كبار رجال الكنيسة ممن لا يرق الشك إلى عقائدهم كانوا على استعداد لأن يصرحوا بأن هذا الوضع أصبح بطبيعة الحال « وهما قانونياً » ، وذلك أن الرهبان كان لهم في الحقيقة كامل التصرف في كل إيراداتهم تقريباً ، وأن ادعاءهم الفقر يجب أن يعدل وفقاً لما أصبح لهم من سلطان ، ولا مراء في أن موضوع الهبات وما يصحبه من ثروة تصدر عن الامتيازات الشرعية هو العامل الرئيسي والأكثر دلالة في تاريخ الديرية ، فمن الثابت منذ الأيام الأولى لنظام الديرية أن هذين العنصرين ، وهما التقشف والتقوة المادية لم ينفصل أحدهما عن الآخر ، كما أنه لم يجر بينهما توافق وملاءمة من ناحية أخرى ، كما يصور القديس أوغسطين في كتابه «مدينة الله (City of God)» ما كان عليه أمر الكنيسة والدولة .



مقدم الرهبان في دير سانت أليان
كان المقدم هو الشخصية الثانية في الدير ، ويحل
في المرتبة الرئيس ، والرئيس هو الذي يمينه ، وإليه
يمهد بالإشراف على جماعة الرهبان ، وعلى النظام داخل
الدير ، ومراعاة المحافظة على القوانين .



وفرة الثروة والامتيازات : وسرعان ما نال هذا النظام الديرى القويم ما يستحقه من ثروة وقوة ، وفى عهد القديس بندكت جاءه النبلاء بأولادهم ليرعاهم وليجعل منهم رهباناً ، وينص البند الحسون من القانون أيضاً على أن المتقدم للرهبنة يجب أن يقدم - عند دخوله فى هذه الطائفة - كل ما يملك ، إما إلى الفقراء أو إلى رصيد الدير ، وهذه الطريقة - وبخاصة ما كان يحلفه الأفراد عند موتهم من وصايا تجرى لصالح أرواحهم - تراكت فى الأديرة إيرادات وفيرة تزايدت أحياناً حتى بلغت مقادير ضخمة ، وزادت الامتيازات بمعدل متساو ، فقد كان الناس يقصدون أفراد الدير وممتلكاته تقديماً غير عادى ، وكانت الأعمال فى الدير - فى العصور الأولى - تحتّم بتلاوة لعنات رهيبة كثيفة على كل من يتعدى على هذه الممتلكات أو الامتيازات أو يفتنصها ؛ ولهذا فإن الأديرة سرعان ما أثرت وكثر عددها ولكن فى غير تناسب مع عدد أولئك الذين لديهم استعداد طبيعى للحياة الدينية .

وقد زخرت العصور المظلمة - بما تعاقب عليها من غزوات البرابرة ومن محاولات يائسة للتعمير - بالصعوبات التى اعترضت نظام الديرية ، فلم تلبث الحماسة أن فترت ، كما ازداد الاغراء باختلاس الممتلكات ، وأخذ النظام يفقد بالتدريج قدراً كبيراً مما يميز به أول الأمر من الطابع الدينى والحيرى ؛ وصادر شارل مارتل (المتوفى عام ٧٤١) كثيراً من الهبات الديرية لتمويل إصلاحاته الحربية ، ولعل المجتمع أفاد بوجه عام من هذا الاجراء . كذلك يتحدث « بيدو Bedo » (المتوفى عام ٧٣٥) صراحة عن انحلال الديرية فى إنجلترا ، كما أن قرارات شارل الكبير وقرارات خلفائه طوال القرن التاسع تروى نفس القصة .

حقيقة جرت من حين لآخر محاولات قوية للإصلاح تولها رجال مثل القديس بندكت الأنبانى S. Benedict of Aniane فى عهد امراطورية شارل ، والقديس دنستان S. Dunstan فى إنجلترا ، كما قامت الأرساليات

الأنجلوسكسونية والكلتية بمجهود كثيرة في جهات متفرقة ، ولكن في أواخر
العصور المظلمة - حوالي عام ١٠٠٠ م - كانت الديرية قد انحدرت
بوجه عام ، وبعدت عن نقاوتها وطهارتها الأولى .

وصحب حركة الإحياء العامة للحضارة حركة إحياء أخرى في نظام
الديرية تزعمها دير كلوني Cluny في برغنديا ؛ وقد تأسس هذا الدير
في عام ٩١٠ ، ولكنه سرعان ما أحرز من عظيم النفوذ ما يمكنه من إقامة أول
هيئة ذات أهمية كبرى في تاريخ الديرية الغربية ، إذ كان يتبعها قبل سنة
١١٠٠ مائتا دير ، وفي عام ١٥٠٠ أربت هذه الأديرة على ثمانمائة ، ومع أن
بعض هذه الأديرة كان على نمط بسيط صايج فإنها كانت تنافس أكبر أديرة
أوروبا ، وكان دير كلوني نفسه يضم أعظم كنيسة في الغرب ويعد رئيسه أعظم
رجال الدين نفوذاً بعد البابا ، فكان بمثابة الرئيس الأعلى لكل أديرة المجمع ،
وله من النفوذ ما يمكنه من الخلع أو الرسامة ، وفي كل سنة يجتمع في «كلوني»
ممثلو المائتي دير في اجتماع عام ، كما كانت تقوم جماعة خاصة بزيارات
سنوية للأديرة وتضع التقارير عن الأحوال الداخلية لكل منها .

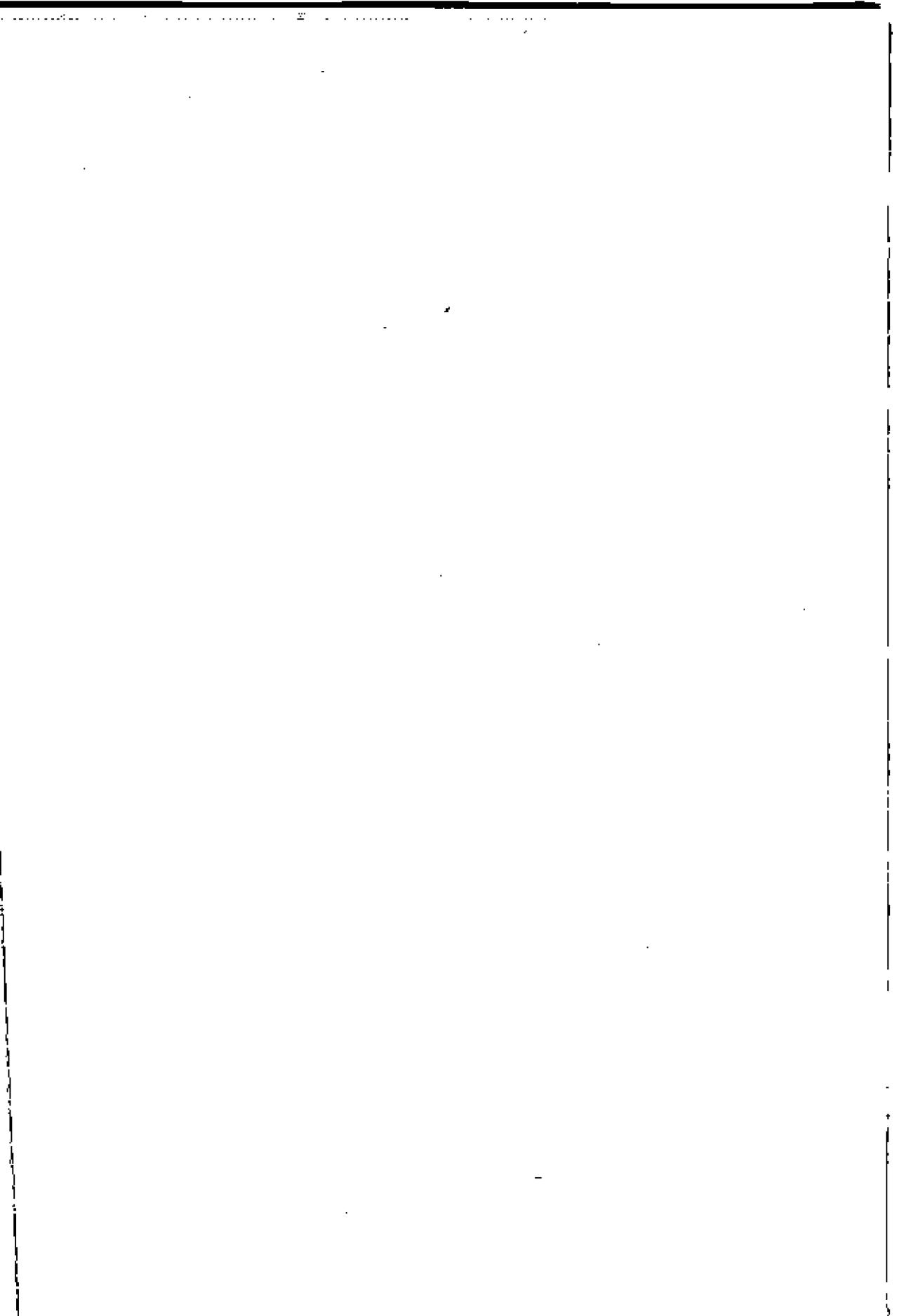
والنتيجة الطبيعية لذلك أن وضع للمجمع كله نظام استثنائي ، بمعنى
أنه أصبح مستقلاً عن أساقفة الأبرشية ، ومثولاً أمام البابا وحده ،
ولم يتمتع بهذا الاستثناء غير عدد محدود من الأديرة ، وكان «كلوني» أولها .
وقد قدم مجمع كلوني خدمات كثيرة لا لإحياء النظام العادي وإصلاحه
فحسب ، وإنما لعالم الآداب والفنون كذلك .

على أن هذه الاجتماعات الدينية والرهبانية بدأت تصيبها عوامل الانحلال
في داخلها في أواخر القرن الحادى عشر ، مع أن المجمع الخارجى كان يسير
خطوات حثيثة نحو التقدم ، وكان من المتوقع أن يتقدم الراهب بتقديم
العالم ؛ وبين سنتى ١٠٢٠ ، ١١٢٠ قام من الجماعات المصلحة
ما لا يقل عن ثمانى جماعات رهبانية صالحة كان ختامها طائفة الكارثوذيين
Carthusians (١٠٨٤) ، وجماعة الميسترشين Cistercians (١٠٩٨) ،
وجماعة البريمونسترانسيين (١١٢٠) .



مقفل القلايات في دير جلوستر

على الجوانب الشمالية والجنوبية والشرقية للقلايات في أي دير حيث كان جماعة الرهبان يقضون معظم أوقات حياتهم ، كانت توجد تماوير في الحائط مكموة بالخشب متصل بها أدراج يستعملها الرهبان عند الكتابة أو الدراسة ، أما الجانب الجنوبي الخالي من الشمس والذي تسوده البرودة فقد كانت تقوم فيه في العادة حجرة الطعام والمنسل ، كما كان الحال في دير جلوستر Gloucester ، ولم يكن في هذا المنسل غير حوض طويل يتيسر للرهبان استعماله عند الاغتسال والتطهر .



ويعد السيسترشيون أهم هذه الجماعات ، فقد كانوا يهدفون إلى العودة بالديرية إلى أصول القانون الذي وضعه القديس بندكت والذي كان يجمع كلونى نفسه قد تخفف منه كثيراً ، وعلى الرغم من أنهم ارتكبوا الشطط أحياناً شأنهم فى ذلك شأن كل المصلحين الذين يضطرون إلى مناهضة عوامل التراخى المزمته ، فانهم التزموا الصواب فى أغلب الأحوال . كان زعيمهم الأكبر فعلاً - وإن لم يكن من الناحية الرسمية - هو القديس برنارد St. Bernard (المتوفى عام ١١٥٤) ، فقد جمع هذا الرجل بين المواهب الدنيوية الفذة والحماسة الدينية الملهبة .

وفى زمنه بلغت ديرية العصور الوسطى أوجها ، فلمدة قرنين من الزمان انهار على الرهبان من الأموال والتمجيد الدنيوى ما لم يسبق له مثيل منذ الأيام الأولى لنشأة هذا النظام ، ويمكن القول بوجه عام أنهم كانوا يستحقون هذا كله . وصحيح أن القانون البندكتى الذى يقضى بوجوب العزلة لقد صار إهماله عاماً ، ولكن إهماله لم يجرب إلا فى سبيل تحقيق غرض آخر يشر الاعمجاب ، وهذه الحقيقة نظل قائمة حتى بعد حذف المبالغات غير المعقولة التى تتضمنها - على سبيل المثال - هذه الجملة التى نقبسطها عن « ثورولد روجرز Thorold Rogers » ، فهو يقول : « كان الرهبان فى العصور الوسطى هم رجال الأدب والمؤرخين والفقهاء والفلاسفة والأطباء ودارسى الطبيعة » .

واستعمال أداة التعريف « أل » حتى فيها يتعلق بالأدب والتاريخ لا تؤيده الحقائق ، فإن الرهبان لا يتفوقون فى هذه الميادين على رجال الكنيسة المدنيين ، ولا سيما إذا قدرنا العرص التى كانت متاحة لهم (أى للرهبان) .

أما الفلسفة فالدعوى فيها أكثر صدقاً ، ومع هذا فإن المفكرين الثلاثة الأكثر نبوغاً فى هذا العصر لم يكونوا رهباناً ، وهم يوحنا سكوتس Johannes Scotus Erigena ، وأبيلارد Abélard ، ومرسيليم بادوا Marsilius Padua .

الرهبانية بمعنوية من ممارسة القاننة والطب : وأما إنتاجهم فى القانون والطبيعة فقد كان إنتاجاً جزئياً ، إذ أن قرارين بابويين قد جعلنا من المستحيل على الرهبان من الناحية العملية أن يصبحوا دارسين محترفين أو متخصصين فى القانون أو الطب .

ولقد كان السبب في هذا المنع مزدوجاً ، فإن الاشتغال بهذه الدراسات قد يؤثر من ناحية في عمل الرهبان الديني ، وقد يدفع — من ناحية أخرى — الراهب المحامي أو الطبيب إلى تقاضي الأجور على مهنته ، واقتناء أملاك خاصة ؛ وهذا يهدم أساساً من أسس الرهبة الثلاث السابق ذكرها .

أما علم الطبيعة ، وهو ما كان الراهب بدرسه داخل قلايته فلا يقاس في الواقع بما كان بدرسه غيره بخارج الدير ، وهنا نستطيع أن نستفي بعض الرجال المشهورين من أمثال روجربيكون Roger Bacon (الذي سمى زملاؤه الرهبان) ، وأفراد قلائل من الرعيل الأول من رهبان أو كسفورد Oxford Friars ، وهؤلاء الذين تأثروا برجل أعظم منهم وهو « جروسست أسقف لنكلن Grosseteste bishop of Lincoln » .

وفي ميدان الفن كذلك نجد أن الأسطورة القائلة بأن الرهبان لعبوا دوراً خطيراً فيه إنما تعتمد على القراءة الخاطئة أو الإهمال للوثائق الحقيقية ، وتعتمد بوجه خاص على تعميمات يتقصها المرر مستخلصة من حالات قليلة معينة (كما تدل على ذلك الوثائق نفسها في معظم الأحوال) .

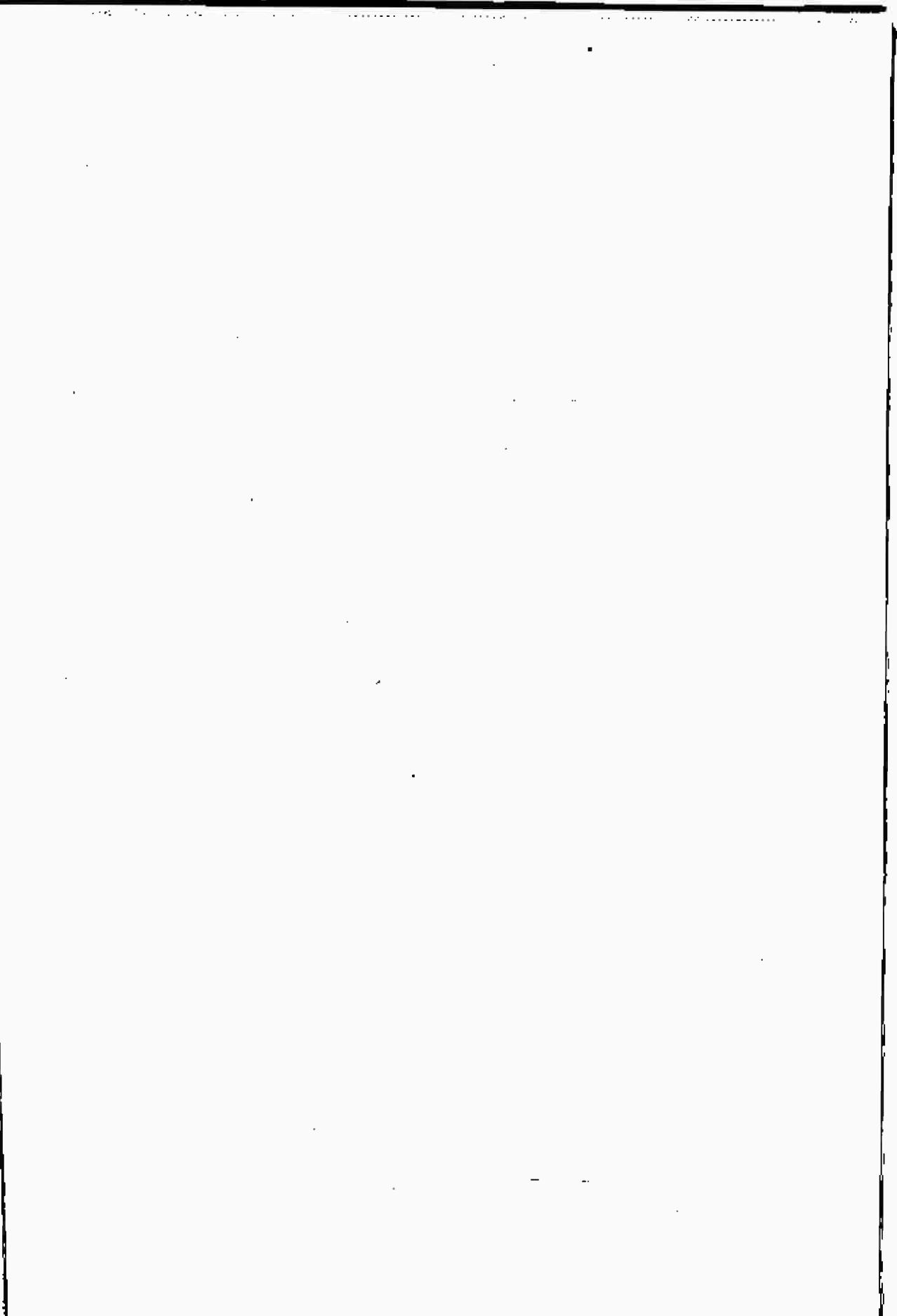
ويجب أن نتذكر هنا أنه كان في إنجلترا وحدها حين حلت الأديرة ثمانية آلاف راهب ، ولعلمهم كانوا اثني عشر ألفاً في سنة ١٢٥٠ . والواقع الذي نخلص إليه هو أن نسبة الفنانين من الرهبان إلى الفنانين جملة لم تزد كثيراً على نسبة الرسامين بالألوان المائية من رجال الكنيسة الانجليكانية في يومنا هذا .

والخدمات التي أدتها الأديرة للتربية لم تخل من المبالغة فيها أيضاً ، فالمدارس الديرية في الأيام الأولى كانت عادة خير المدارس الدينية ، وفي بعض الأحيان كان الرهبان الخاضعون لنظم الإرساليات الأولى يديرون مدرسة صغيرة لتعليم الوافدين من الخارج ، فضلاً عن تلاميذهم من الرهبان الجدد ، ثم أصبح يلحق بكل دير كبير مدرسة خيرية صغيرة ومدرسة أخرى أصغر منها للمرتلين ؛ وعلى الرغم من أوامر المنع والحظر الصادرة من الرؤساء الدينيين كان عدد قليل من الراهبات يحاولن زيادة مواردهن الضئيلة

السر والصلاة على الميت



عندما كان يموت الراهب كان جنازه يحمل
إلى الكنيسة خلال البرابة الكبرى ويوضع أمام المدبح
حيث يبق تحت أمين رفاته يصلون عليه إلى أن يحين
موعد دفنه .



بالتدريس لبعض الأطفال ، أو لبعض التلاميذ الكبار المقيمين بالأقسام ؛
على أن الأديرة لم يكن لها صلة مباشرة بإنشاء الجامعات ، فالرهبان الذين
درّسوا في الجامعات كانوا في الغالب كما مهملًا ، ولم تصادف المحاولات
البابوية منذ سنة ١٣٣٦ لدفع عدد من الرهبان للدراسة في الجامعة إلا نجاحاً
جزئياً على أحسن الفروض .

وأخيراً يجب أن نستخلص نتائج مماثلة من القول الشائع بأن الأديرة
كانت حوائث كبيرة لنسخ الكتب ، إذ توافر من الأدلة ما يكفي لمعالجة
هذا الموضوع من الناحية الاحصائية في نطاق محدود ، وذلك أن فهارس
الكتب الموجودة في الأديرة خلال قرون مختلفة تمكنا أحياناً من احصاء نسبة
الزيادة إيماناً وقت معين ، وهذه النسبة لم تزد مطلقاً على ما نقدره لعمل راهب
واحد - من بين خمسين راهباً - إذا دأب على العمل باستمرار نصف اليوم
بسرعة ناسخ محترف ، هذا إذا افترضنا أن كل الكتب الجديدة قد كتبها
رهبان ، على حين أننا نعلم أن هذه الكتب جرى في حالات كثيرة اهداؤها
إلى الأديرة أو تمَّ بيعها إلى الأديرة ، أو قام على كتابتها داخل الدير ناسخ
مأجورون ، وهناك من الأدلة ما يثبت أن استتجار النساخ كان نظاماً معمولاً
به قبل سنة ١٣٠٠ ، وخاصة في الأديرة الكبرى التي كانت تحتوي على قاعات
نسخ « Scriptoria » مشهورة ، مثل دير القديس ألبان S. Alban ، ودير
كورفي Corvey .

ولكن على الرغم من هذه الاستنتاجات جميعها نستطيع أن نقول
أن الديرية تعد من أعظم عوامل الحضارة في العصور الوسطى ، إن لم تكن
أعظمها ، فالأديرة هي الوسيلة الأساسية التي انتقلت بها الحضارة الرومانية
القديمية . فعند ما فتح القائد القوطي تيودوريك Theodoric ايطاليا اتخذ
كاسيودوروس Cassiodorus الروماني وزيراً له ، وبعد أن خدم هذا الرجل
الدولة ثلاثين سنة تقاعد في قريته سكريلاس Squillace في مقاطعة كالابريا
Calabria ، فأنشأ بها ديراً ووجه مكتبة ورسم له مشروعاً للدراسة ،
والراجح أن خير ما هو موجود الآن من ترجمات لاتينية للكتاب المقدس

إنما جاءت من مكتبة كاسيودوروس . ومن الطبيعي أن الأديرة الأخرى كانت تضم مجموعات من الكتب أصغر من هذه أو أكبر ، وأن نسبة كبيرة من هذه الكتب - في أصولها أو في صورها المنسوخة - قد بقيت سليمة برغم ما جرى من غارات البرابرة وقرصنة النورمان ، وما جلبته الحروب الأهلية من خراب ودمار، أو الإهمال الشخصي وسوء الإدارة الداخلية ، وتغير الأنماط والنظم (ولعل هذا كان أخطر في ذلك العهد منه اليوم) .

ويحدثنا الراهب سالمين Salimbene - فيما كتبه في أواخر القرن الثالث عشر - كيف أن إزالة كتابة المخطوطات ومحوها كان يتخذ في أحد الأديرة مهنة مألوفاً ، فقد كانوا يمحون الكتابة القديمة ليكتبوا مكانها شيئاً جديداً ، وفي العصور الحديثة كشف كثير من أفضل النصوص وأقدمها مكتوبة تحت نصوص أحدث منها .

وهناك دليل آخر على الإهمال التام للكتب يتمثل في الشكاوى التي أبدتها الأسقف ريتشارد دي بيوري Richard de Bury في كتابه « حب الكتب Love of Books » ، وفي الحالة التي وجد عليها « بوكاشيو Boccaccio » - حوالي نفس الوقت - دير القديس بندكت في مونت كاسينو ، ولكن بقيت هناك حقيقة لا يصح إغفالها ، وهي أن الكتب التي بقيت خلال العصور الوسطى إنما تدبر يقامها إلى الأديرة ، وهذه الحقيقة تصدق إلى حد ما حتى على العصور الوسطى المتأخرة .

وفيما يتعلق بالزراعة نجد أن الرهبان تقبلوا ونقلوا التقاليد الرومانية للملكيات الكبيرة ، ففي تلك العصور المظلمة استطاعت ضياعهم أن تقاوم عوامل الفوضى أكثر مما استطاعت الضياع المدنية العادية ، فقد كانت تدار بنظام أدق وتعد حساباتها بطريقة أفضل .

وإذا كنا نجد في العصور الوسطى المتأخرة - أن الرجل العلماني غالباً ما يتفوق على الراهب ، فإن ذلك يرجع إلى حد ما إلى أن الأمراء والنبل كانوا يستغلون وقتذاك الأفكار التي سبق لهم أن تعلموها في الأديرة في عصورها



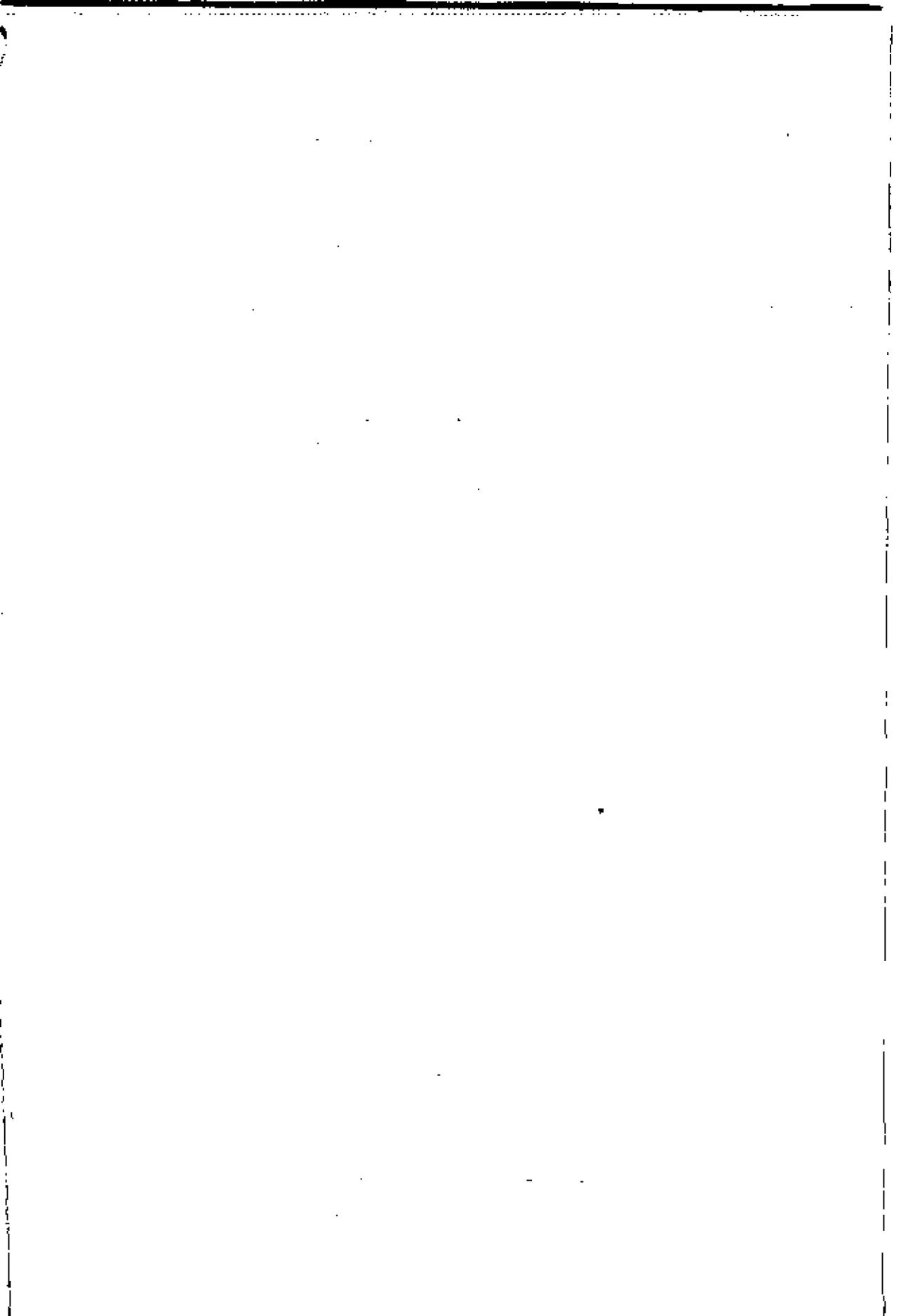
أثناء العمل في حجرة الكتابة والنسخ

في حين أنه قد برز في الخدمات التي أدتها الأديرة للإكثار من الكتب نجد أن الأديرة الكبيرة كانت توجد بكل مكانها قاعة النسخ حيث كان الرهبان أو الكتبة المحترفون المتأجرون (وهذه صورة واحد منهم) يزودون بالأدوات اللازمة لنسخ الكتب .



راهب كرملي في مكتبته

أسست طائفة الإسخريان الكرمايين على جبل الكرملي في القرن الثاني عشر ، ثم انتشرت في أوروبا في القرن الثالث عشر ، ولأنهم كانوا يرتدون القبا، الأبيض فوق رداهم الأسود فقد عرفوا باسم الإسخريان البيض .



الأولى ؛ ومما لاشك فيه أن الفلاحين احتفظوا - فيما يتعلق بتفاصيل الزراعة الأولية - بالتقاليد الرومانية ، فهذه الأمور العادية تنتقل عادة من الأب إلى الابن ، ولم تستطع الغارات أن تقضى على هذه المعرفة إلا في المناطق التي فنى الفلاحون فيها فناء تاما .

ومع هذا فإن الرهبان أسهموا بقدر كبير في هذا الميدان بالمحافظة على المؤلفات الزراعية للكتاب الرومانيين القدماء ، وليس من سبيل للشك في الروايات التي تقول إن أصنافاً مختلفة من الكثرى والتفاح وغيرها قد انتشرت نتيجة لتبادل الأشجار المطعمة ما بين دير ودير آخر .

أما جهود الرهبان في ميدان الاحسان فقد كانت جهوداً عظيمة جداً حينما كانت الحركة في أوجها ، ولم تضعف كثيراً حتى عند ما كانت الحركة في أسوأ حالاتها ، صحيح أن معظم هذا الاحسان كان يجري وفقاً لقانون ، بمعنى أن المال كان يتركه المحسنون الذين خصصوه تخصيصاً قاطعاً للفقراء ، وكان يسمح للرهبان تبعاً لهذا أن يستأزلوا هذا المال من بيان دخلهم الذي رجعوا إليه سنة ١٥٣٥ عند تحديد الضريبة الكنسية المعروفة باسم *The Valor Ecclesiasticus* ، وصحيح أيضاً أن هذه الحصص القانونية من الأموال لم تكن توزع دائماً توزيعاً كاملاً ، فإ وصلنا من شكاوى المعاصرين ، وما ورد فيما بقى مصادفة من دفاتر حسابات الرهبان يدل على أن قدراً ملحوظاً من هذه الأموال قد اختلس ، ومع ذلك فقد بقيت للرهبان في ميدان الإحسان جهود تؤيد الرأي القائل بأن حل الأديرة كان عاملاً كبيراً من العوامل التي أدت إلى تفاقم الأزمة الزراعية في القرن السادس عشر

وإذا نحن واجهنا الحقائق في أسوأ صورها ، وفي أسوأ الأزمنة والأمكنة وجدنا أن حياة الراهب العادي كانت أكثر انتظاماً من حياة الرجل العادي من غير رجال الدين ، فإذا نحن استطعنا أن نقيس حياة الراهب بهذا المقياس مع عدم النظر إلى مهنته السامية وإلى الهبات السخية التي تغدق عليه ، وإلى الامتيازات السياسية والاجتماعية العظيمة التي كان يتمتع بها فإن هذا يخفف من حدة النقد الموجه إليه . ولكننا لانستطيع أن نقف عند هذا الحد ،

فإن من واجبتنا ألا ندخل في اعتبارنا ما كان عليه فحسب ، بل يجب أيضاً أن ندخل في اعتبارنا ما ينبغي أن يكون عليه . وهناك تقارب في الرأي بين الدارسين من المتسكين بالأصول وغير المتسكين بها حول مراحل الانحلال التدريجية التي يمكن أن تفسر وحدها الكارثة التي حلت في القرن السادس عشر .

ولقد أشرنا من قبل إلى أولى هذه المراحل ، وذلك أن المال بدأ ينحني الدر ويسد عليه السبل ، وقد لاحظ هذه الحقيقة المتسكون بالأصول في القرن الثاني عشر ، كما لاحظها أيُّ البيجنسي أو ويكليفي ، وكذلك يدل « اندوم أورسمر برليير Dom Ursmer Berlière ^(١) » - وهو عالم بندكتي محدث - ما لم يبذله غيره للكشف عن عيوب النظام الذي كان يتبع لاختيار الرهبان وضمهم إلى الأديرة البندكتية خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر ، ونحن نستطيع - دون أن نعدو الحقيقة - أن نطبق على هذه الأيام المثل الذي كان سائراً في ألمانيا خلال الأيام الأخيرة من العصور الوسطى ، والذي يقول « إن الأديرة ما هي إلا بيوت الصدقات للنبلاء » ، أي أنها كانت ملجأ لمن لا صدق له من صغار أبناء النبلاء وبناتهم . وقد توافر فيها من الوظائف المربحة ما يزيد على عدد الصالحين بطبيعتهم للخدمة الدينية ، وفي أغلب الأحوال كانت الأقلية التي ترغب جادة في الرهينة لا تلبث أن نجد من ضروب الاغراء ما يجعلها تحذو حذو الكسالى المترخين ، أو تعاني من الاضطهاد والاذلال ما يؤدي إلى وهنها وضعفها .

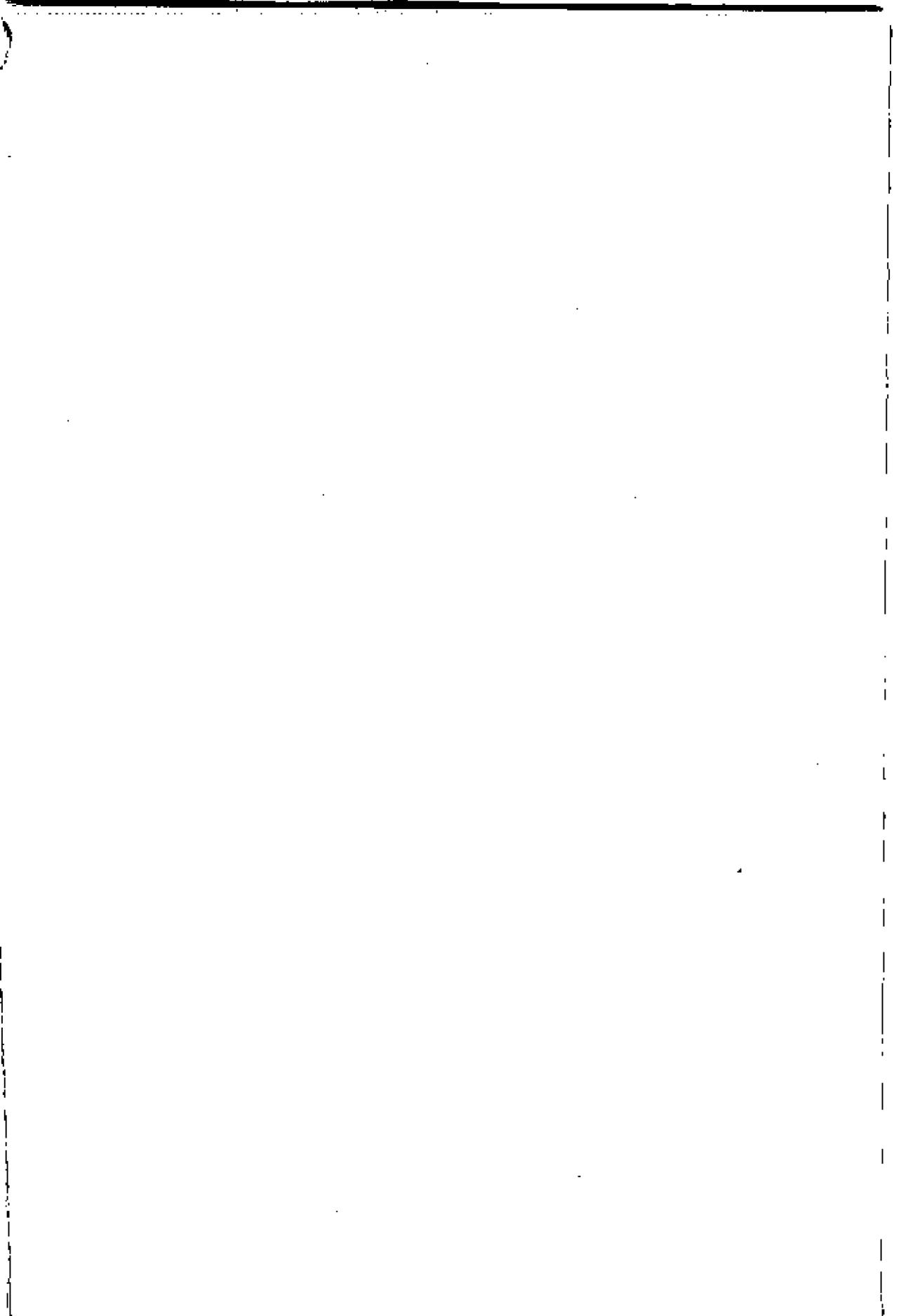
وإننا لنجد في القرن الخامس عشر راهباً مصلحاً من مدينة فينا يسأل أمقفاً من أصدقائه : إلى أي حد يلزم القسم الرسمي الرهبان - من الناحية الخلقية - بالتسك بنظام الرهينة الحقيقي ؟ وإذا أخذنا هذا القسم بحرفيته ، فنذا ندخل اللجنة من الرهبان ، لأن هناك أموراً كثيرة لا يحافظ عليها الرؤساء أو أتباعهم ؟ بل تشهد بهذا القوانين الواردة في الفصل الذي تناول القواعد العامة للرهبنة ،

(١) اندوم Dom لقب يسبق أسد كبار رجال الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، والرهبان البندكتيين والكارثوسيين .



اللابيس المميزة للطوائف الدرزية في إنجلترا

وصلنا مطرقات وثيقة عن ملابس عدد من الطوائف الدرزية عن طريق صفحة من كتاب للزناير موضح بالسور يرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو أحد مقتنيات كلية سيدك سكس في كامبرج . ومن طول الجزء الأسفل من الصفحة يوجد هذا الربط الذي ترى صورة هنا ، وهو يبين من اليسار إلى اليمين : واهيين من السنترميان في ملابسها البيضاء ، وراهيين من اللورسيكان في ملابس سوداء تحمل اللابيس البيضاء ، وراهيين من العجل أن يكرنا من البريويست انتسبون في ملابس بيضاء ، والذين من الإيتران الأكستيفيين ، وراهيين من الفرانسكان في ملابس بيضاء اللون ، وراهيين من الكرمطيين في ملابس بيضاء تحمل اللابيس السوداء ، ثم واهيين من البداكسين .



ذلك لأن معظم الارشادات الهامة التي ينص عليها قانون الديرية كانت قد أهملت اهمالاً واضحاً وجرى إغفالها رسمياً ؛ فلحم الذبيحة مثلا الذي كان مؤسس النظام قد حرّمه تحريماً قاطعاً بلغ من شيوخ تناوله وأكله أن اضطرت بندكت الثاني عشر في سنة ١٣٣٧ أن يبيح أكله يوماً بعد يوم ، كذلك كانت القواعد المشددة التي تحتم الخلوة للعبادة قد أهملت ولم تعد تفرض إلا على أنها عقاب استثنائي ، فالراهب الذي يقول لأخيه : « أنت تكذب » لم يكن يسمح له بمغادرة حرم الدير لمدة ثلاثة أسابيع ، أما الضرب عمداً بقبضة اليد أو بسكين فعقابه كان العزلة لمدة سنة ؛ وتكاثر الدير ، والسبب الرئيسي في تكاثرها يرجع إلى الإهمال وسوء الإدارة على الرغم من أن الطواعين والحروب تعد أسباباً مساعدة في معظم الأحوال ؛ أما تناقص الدخل فجري علاجه بالاقفال من عدد الرهبان والراهبات ؛ وأهملت حفلات القداس وترتيل الترانيم ، ففي سنة ١٤٣٧ لاحظ الأساقفة الزوار أنه لم يشهد القداس في بتربره Peterborough إلا عشرة رهبان أو إثني عشر راهباً من بين ست وثلاثين راهباً كان من المفروض عليهم حضوره ، وكانت نسبة الحضور بين الرهبان في رامساي Ramsey مشابهة لهذه النسبة ، « لدرجة أن جماعات المدنيين بدأوا يتحدثون عنا حديث السوء » .

ذلك هو التعليل الوحيد لحركة حل الأديرة في إنجلترا ، فلم يعد الرهبان محبوبين من الشعب ، بل إن انحلالهم كان منذ سنة ١٢٠٠ أقل خطراً من تخلفهم المتزايد عن المجتمع المحيط بهم ، ففي هذا المجتمع الخارجي كان التعليم ينمو ، وكانت التجارة تنتشر ، وكانت الأفكار تتسع آفاقها ، على حين أن الأديرة لم تشعر بما جرى من تطور ، ولم تحس بأن عجلة الزمن تدور ، وتكشفت عيوبها لجيل بذلت كثيراً في سبيل تعلم أسلافه بطريق مباشر أو غير مباشر . والاتفاق تام بين المتسكنين بالأصول والصفوة من رجال الكنيسة على نقد الأديرة خلال القرون الثلاثة الأخيرة السابقة لحركة الإصلاح الديني .

وكان « الأسقف بيكوك Bishop Pecock » (المتوفى حوالي سنة ١٤٦٠) على حق في دفاعه حين عارض اللولاردين Lollards قائلاً إن الرهبان

لو قورنوا بالعلمانيين - رجلا برجل - لرجحت كفة الرهبان ، ولكن المجتمع كان في حاجة إلى أكثر من هذا ، كان في حاجة إلى هيئة من الرجال تستطيع أن تبرر ما تتمتع به من ثروات ضخمة وامتيازات كثيرة ، وكانت جماعات كثيرة من العلمانيين والكنسيين على شيء من العلم بالجهود النشيطة التي بذلت في سبيل الإصلاح ، وبضآلة نتائج هذه الجهود .

وأنوسنت الثالث هو أول البابوات الذين عنوا جدياً بإصلاح الرهبنة ، فقد أصرّ في مجمع لاتيران Lateran الرابع (عام ١٢١٤) على القول أنه ما دامت التشريعات الدينية العامة ونظام التفتيش قد قبلها عدد من الجماع فلأنها يجب أن تسرى أيضاً على جميع البندكتيين ، هذا القرار كان له أثر واضح على الأوغسطينيين Augustinians (١) كذلك .

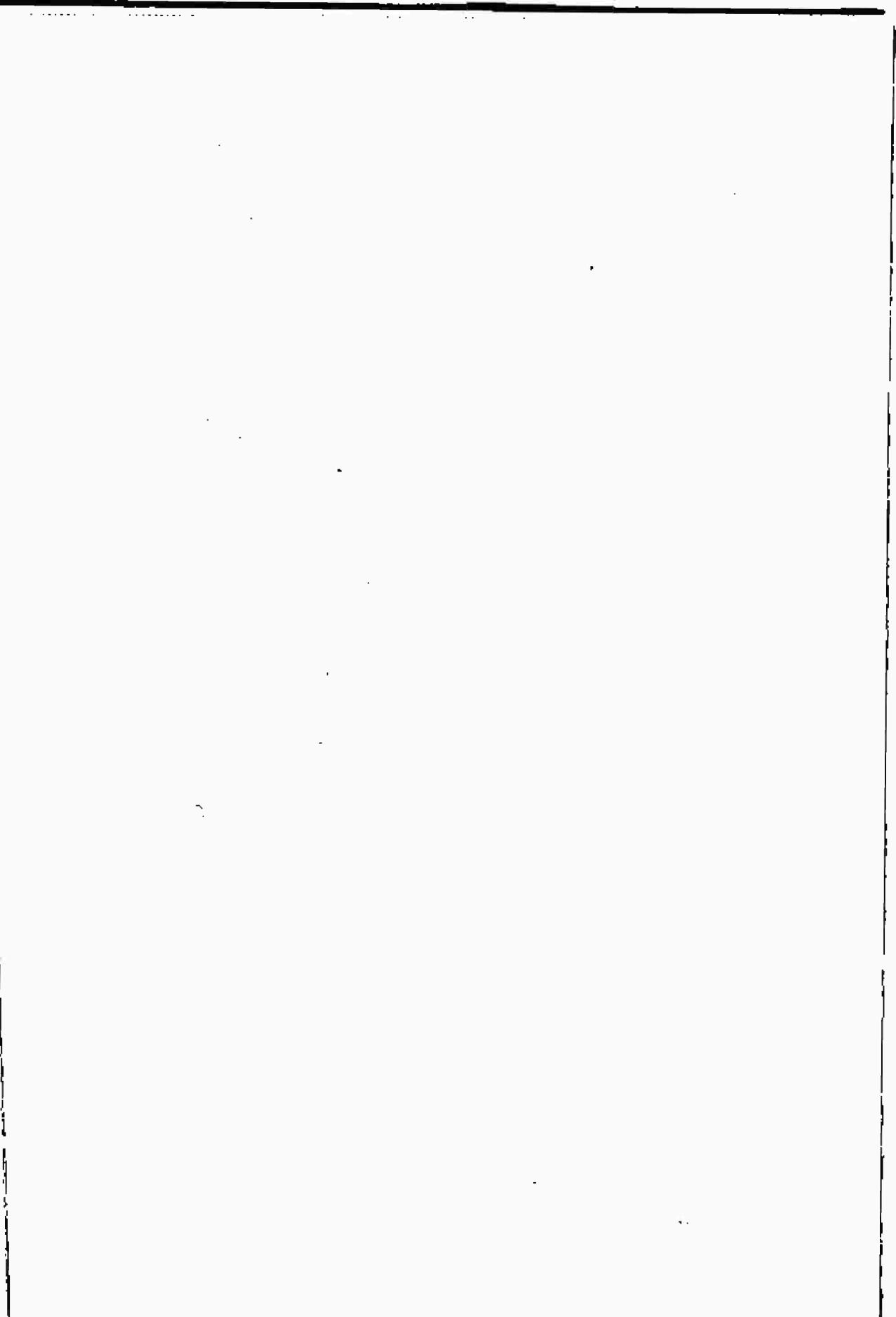
وفي نفس الوقت جاء الدافع من أسفل ، شأن الإصلاحات الديرية العظمى ، بل لقد كان هذا الدافع أكثر أهمية من الحركة الكارثوزية السيسترشييه - البريمونسترانسية السابقة ، وكانت الديرية بفضل التبرعات والهبات الطائلة قد تورطت مع الإقطاع والأسمالية (بدور الأسمالية البدائية في ذلك العصر المبكر) ، فتفتق ذهن القديس فرنسيس St. Francis (المتوفى عام ١٢٢٦) عن فكرة لإصلاح ديني اجتماعي جديد ، هذا الإصلاح في جوهره كان معارضاً ومعادياً للأسمالية ، وكان هدفه (أن يتبع المسيح العارى عرباناً) ، وهو يعنى حرفية هذه العبارة أكثر مما كان الراهب يقصد حين يستعملها ، فالرهبان كانوا فقراء أفراداً - إذا التزموا قوانين الرهبنة - ولكنهم كانوا أغنياء جماعات ، أما الأخوة الصغار (كما كان يسمى القديس فرنسيس تلاميذه) فيجب ألا يمتلكوا شيئاً سواء أكانوا أفراداً أم جماعات ، بل إن البيوت التي يسكنونها يجب ألا تكون ملكاً لهم ، وكان نجاحه السريع

(١) لفظ يطلق على ما يقرب من ٦٠ طائفة ديرية تنسب للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وتسمد تانورها من مواعظ وكتابات القديس أغسطين أسقف هيو Hippo .



١ موعظة في الهواء الطلق يلقيها أحد الاخوة الفقراء

كان الدومنيكان - من بين طوائف الإخوان الرهبان - هم الذين يشتمون بصفة خاصة بالدعوة ، ولكن التبشير في العالم كان واجب الإخوان الفقراء ، جميعاً ، وكانوا - كيشيرين - يطلبون بكثرة ، ومع هذا لم يكن من الجائز أن يمتلوا حل اختصاصات رجال الكنيسة أو أن يقوموا بالتبشير في دائرة أبرشياتهم دون إذن منهم .



أعجوبة من أعاجيب التاريخ ، حتى يمكن أن نقول بحق أنه كان أشبه الناس
بالمسيح منذ عهد المسيح ، ومع ذلك فإن هذا الهجوم الجريء على الثروة
قد فشل مع مرور الزمن .

أما القديس دومينيك St. Dominic (المتوفى عام ١٢٢١) - والمعاصر
للقدّيس فرنسيس - فقد انتهى إلى ذات النتائج على وجه التقريب ، رغم أنه
بدأ من نقطة مختلفة بعض الشيء ، فقد كان الرهبان الفرنسيون والدومينيكان
حلفاء في أول الأمر ، وتعلم الفرنسيون من منافسهم وأصدقائهم أن يعنوا
عناية خاصة بالدراسة والدعوة ، كما تعلم الدومينيكان أن يقدروا قيمة الفقر
أكثر مما كانوا يفعلون في بداية أمرهم ، ثم أصبحوا المثل الذي احتذته
في الوحدة والتماسك جماعة من بين جماعات النساك الكثيرة الموجودة حينذاك
والتي لم تكن - إلى حد ما - منظمة ، أولها صفة رسمية ، فجرى الآن تنظيم
هاتين الطائفتين وحصلتا على قوانين تحمل موافقة البابا ، وهاتان هما : جماعة
رهبان الكرمل ، وجماعة رهبان الأوستينيين Carmelites and Austin Friars -

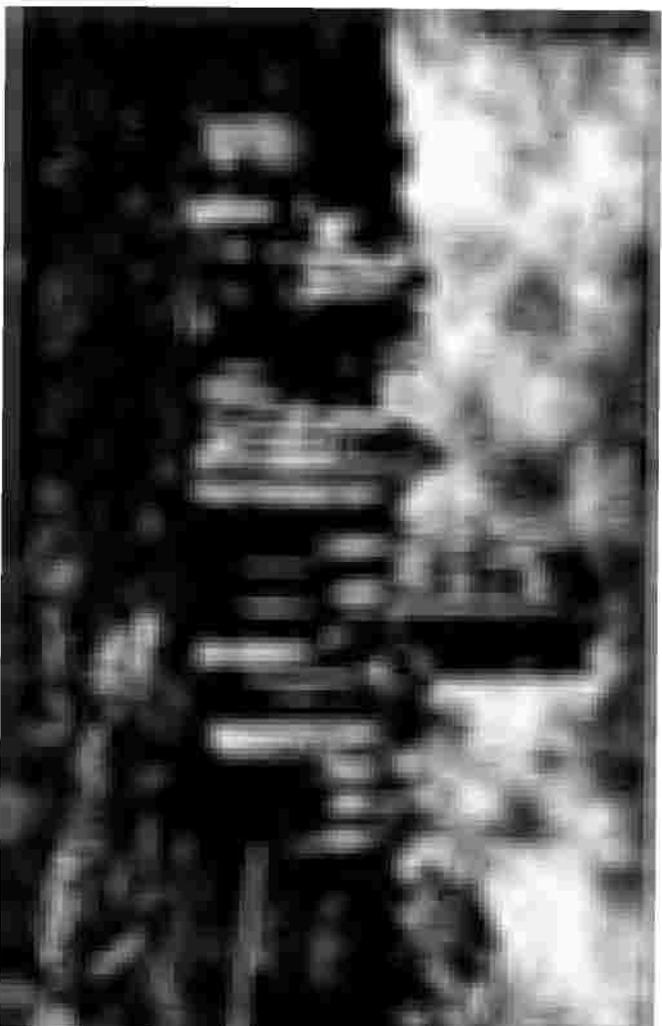
تنظيم الاضواء الضراء : وقد أصبح للفظ «أخوة أو أخوان -
Friars, Fratres» الذي استعمل طويلاً في الأديرة والمجتمعات الدينية
المشابهة معنى خاص الآن ، فلفظ أخ Friar كان يختلف عن التعبير القديم
« متدين Religious » في نقطتين أساسيتين : فالأخ أصبح فقيراً ،
لا يوصفه فرداً فقط ، بل بوصفه عضواً في جماعة أيضاً ، ثم إنه لم يعد يلتزم
العزلة في صومته كما كان يفعل من قبل ، وإنما أصبحت الصومعة مركزاً
لأعداد أعماله التبشيرية في العالم الخارجي ، وكان الرهبان الكنسيون
Canons Regular يعملون في الغالب قسماً للأبروشيات غير أنهم لم يبلغوا
في العدد وحرية الحركة والانتقال ما يبلغه الأخوان ، ومن الطبيعي أن يفيد
البابوات والأساقفة الغيورون من هذه الحماسة الجديدة كما تجاوب الأخوان
تجاوباً حيداً مع الطوائف القديمة .

وفي عام ١٢٣٦ نشر جريجورى التاسع - وكان صديقاً شخصياً للقديس
فرنسيس وأحد كبار البابوات المشرعين - مجموعة من القوانين الإصلاحية

الصارمة ، ولكنها طبقت تطبيقاً سيئاً ، ثم بدأ الانحلال يصيب الرهبان أنفسهم بسرعة ، ولم يمض قرن حتى كانت الحاجة إلى التجديد أمراً مما كانت من قبل .

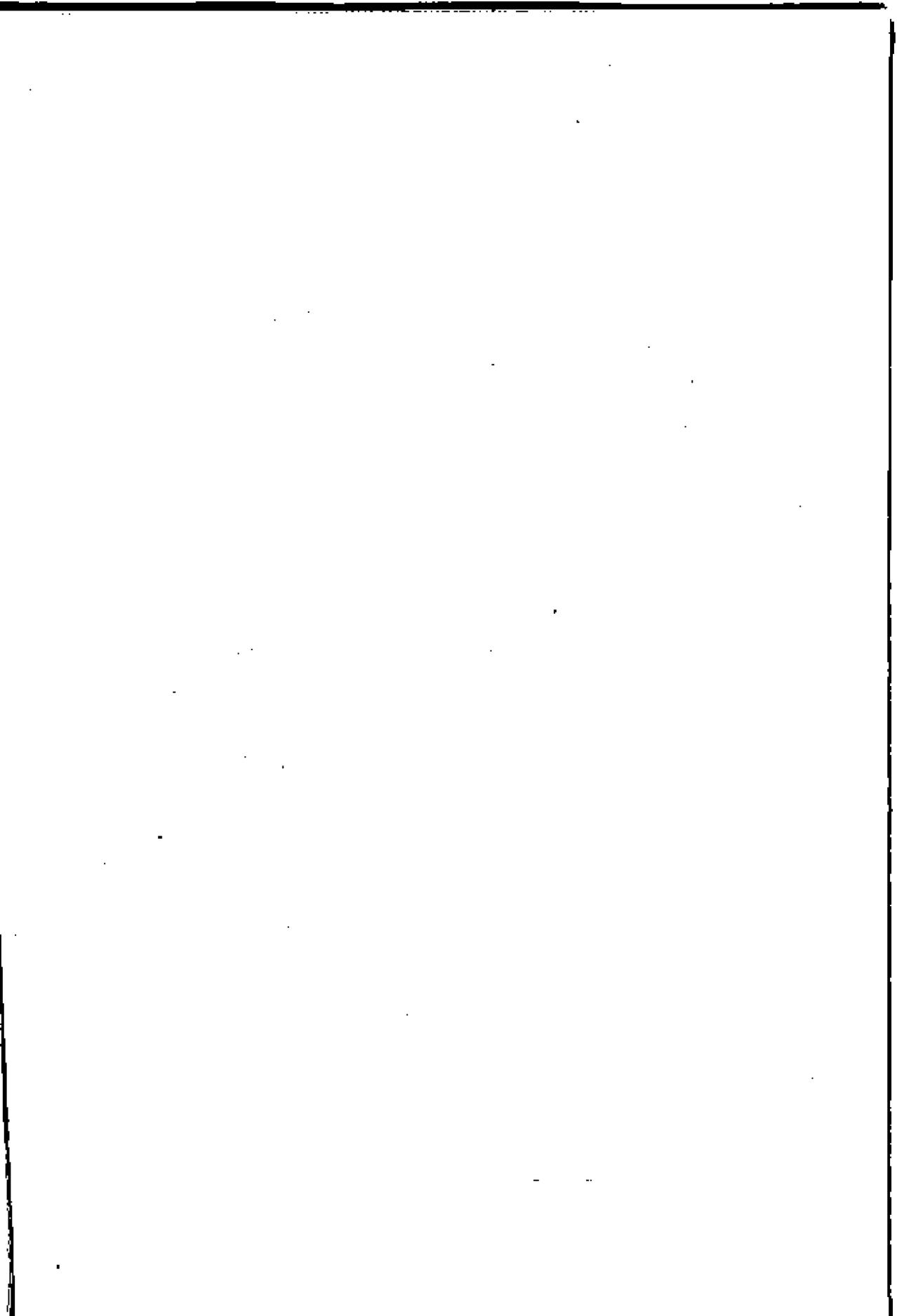
عند ذلك أتى مصلح عظيم آخر من بين البابوات ، وهو بندكت الثاني عشر Benedict XII ، وكان هو نفسه أصلاً من الأخوان السيسترشين Cistercian ، وقد نشر مجموعة من القرارات الإصلاحية أكثر إحكاماً من القوانين البندكتية والأوستينية ، ومع أن البابا بندكت قد تسامح في أشياء باعتبار أنها مما لا يمكن تفاديه ، فقد جاهد لوضع حد لما قد يجرى من اغفال للمثل العليا الصارمة ، بيد أن قوانينه كانت قليلة الأثر ، وكان انحلال الرهبة موضوعاً من أهم الموضوعات التي عرضت للمناقشة في المجمعين الكبيرين : مجمع كونستانس Constance (١٤١٤-١٤١٨) ، ومجمع بازل Basel (١٤٣١-١٤٤٣) ، وقد بذلت جهود كثيرة صادقة لا سيما في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ، حيث كانت الأحوال أسوأ مما هي في إنجلترا ، ولكن هذا الإصلاح كان ذا طبيعة انتقالية ، كما اعترف بذلك في آخر القرن تروثيموس Trithemius ، وهو من أبرز رؤساء الأديرة المصلحين ، ولم يكن الراهب الفرنسي الكبير لاجي جوينو Guy Jouenauux أقل بأساً من صاحبه ، في كتابه الصغير الذي نشره في عام ١٥٠٣ .

ولم يمكن في إنجلترا دير بلغ من الكفاية مبلغ أحسن الأديرة وأكثرها إصلاحاً في خارجها ، ولكن المستوى العام للنظام في أديرة إنجلترا كان أرفع ، على أنه في إنجلترا ذاتها كان لا بد من أزمة خطيرة حتى ينهار هذا الصرح الشامخ ، فقد أراد الملك أن يكون سيداً في مملكته ، ولكن الرهبان كانوا تبعاً لعتورهم رعايا للبابا يتحصنون في معسكرات تنتشر في نواحي البلاد المختلفة ، ثم إن الملك اشتدت حاجته إلى المال ، وتوافرت في الأديرة من الغنائم والأسلاب ما يستطيع أن يستحوذ عليه دون أن يثير غضب الشعب بشكل خطير ، ولذلك كان من الطبيعي عند صراع الملك مع البابا أن يبدأ بمهاجمة الأديرة .



دير فونتين أيجل الأديرة في إنجلترا

تعد أطلال دير فونتين بالقرب من ديفر في نورثوكيوس - باسنتا، دير تشرن Tiron - أكل أطلال ديرية موسوعة في إنجلترا ، وهي تحتوي على الكنيسة بجزءها وبيت الصلاة والتلاوات وأجزاء أخرى من المبنى . وهذا الدير الذي كان بيتا مسترشيا بكنهه وحيان من دير سانت ماري St. Mary في بورك بها جنازه حوالي سنة ١١٤٠ ، وتم بعد مائتي سنة تقريبا ، وقد سجل هنري الثامن هذا الدير ثم يمت أطلاله وأرضه بعد ذلك .



كانت الأخطاء التي ارتكبت في حركة حل الأديرة الإنجليزية بالغة الخطورة ، وكذلك كانت الحماير ، مهما تفاضينا عن المبالغت المفروضة جميعها . وقد يقال إن أخطاء ومظالم أشنع من هذه قد ارتكبت بمشع ورغبة في السلب والنهب لا تقل عما بدا في إنجلترا ، وذلك عند ما أقدم ملك أرثوذكسى فرنسى - بمساعدة البابا - على إلغاء نظام رهبان المعبد في عام ١٣١١ ، ولكن حركة حل الأديرة في إنجلترا إذا نظرنا إليها في ضوء الأساليب التي استخدمتها فعلا ، هي رغم ذلك أقل أحداث التاريخ الإنجليزي تشريفاً لمن قاموا بها ، على أننا قد نجد لها من الحوادث مبرراً إذا نظرنا إليها من حيث المبدأ الأساسى الذى قامت عليه .

وفى تلا ذلك من تاريخ الديرية لا نجد ما نستطيع أن نسجله الا أن يكون تكراراً للقصة السالفة بما كان يعاقب عليها من مظاهر الانحلال ومحاولات الإصلاح وإن كان التيار يسير بها في الجملة سيراً حثيثاً الى أسفل ، وقد سار حل الأديرة في ألمانيا البروتستانتية خيراً مما سار في الجزر البريطانية ، فخصصت نسبة أكبر من مبانى الأديرة وإيراداتها للأغراض التعليمية ، وفى ألمانيا والنمسا الكاثوليكيتين ترتب على الإصلاح الكاثوليكي حركة إحياء للتنظيم والتعليم الديرين ، وفى هذا المجال خرج البندكتيون بوجه خاص عدداً طيباً من الطلاب والكتاب البارزين .

مجمع سان مور St. Mour : بيد أن البندكتيين قد بذلوا أحسن جهودهم في فرنسا ، ولا سيما فيما يتعلق بإصلاح مجمع أديرة سان مور ، فهذا الإصلاح يعد من جميع الوجوه أهم حادث في تاريخ الديرية في المدة بين قيام اليسوعيين وبدء الثورة الفرنسية .

وقد تأسس مجمع أديرة سان مور في عام ١٦٢١ تحت رعاية جريجورى الخامس عشر ولويس الثالث عشر ، ورحب بهذه الحوكة الكردينال ريشليو ، فقد كان يعمل جاهداً في سبيل إصلاح الديرية إصلاحاً شاملاً ، ولهذا فقد حاول أن يضغط على كل البندكتيين في فرنسا للانضمام لهذا المجمع ،

ومع أنه فشل في هذا ، فإنه بمرور الوقت قد انضم الى المجتمع مائة وواحد
وتسعون ديراً لم يقل رهبان الواحد منها عن تسعة من الرهبان، ولا بد أن المجتمع
كان يضم نيفاً وألفى راهب .

ولقد أدت حياتهم الرتيبة والعناية التي كانوا يبذلونها لتعليم الرهبان الجدد
إلى نمو مضطرد في الدراسات العلمية ، وإن كان من الواضح أنهم لم يهدفوا
إلى تحقيق هذا الغرض مباشرة منذ البداية ، واستطاع رجال اشتهروا بعلمهم
الغزير أن يخرجوا على أيديهم عدداً من الطلاب يفوقونهم علماً ، وكان كل
دير يثير منافسة الدير الآخر ، وكان الكل يقاسبون في البحث والانتاج
والتعاون ، وفي الحقيقة لقد كانوا جامعة كانت لها شعبها المنتشرة في كل ناحية
من نواحي المملكة، وكانت على اتصال دائم بالعلماء والطلاب في الخارج .
ولم تكن قوة الرهبان تتمثل في الآراء الأصلية المتكررة بقدر ما تتمثل
في القدرة على البحث، أو في القدرة على اكتشاف الوثائق القيمة والعمل
على نشرها، أو في اخراج الطباعات ذات المستوى العلمي التي قام على نشرها
الآباء ، أو في طبع حوليات العصور الوسطى ، وتكملة الذبول والصلوات
العلمية المتقنة لكتب التاريخ ، وخير مثال لها : « فن تحقيق التاريخ
The Art of Verifying Dates » و« التاريخ الأدبي لفرنسا The Literary
History of France » غير أن رفضهم العمل ضد الجانسينيين^(١) Jansenists
وميلهم الجاليلكانية^(٢) جعلتهم عرضة لهجمات اليسوعيين العنيفة ، ثم لم تلبث
أن تسلت بعض العيوب الخطيرة إلى هذه الهيئة الممتازة ، وكانت أحوالها
العلمية قد تعطلت وأصابها الضاد فعلا عند ما قامت الثورة الفرنسية ، فأزالتها
من الوجود كما أزلت غيرها من الأديرة .

(١) الذين ينتسبون إلى جانسينوس أسقف Ypres، وكتابه المعروف باسم أغسطسينوس يتضمن
ما اعتقد أنه تعاليم القديس أغسطس في الإرادة الحرة والعفو الإلهي .

(٢) « Gallicanism » هي الميول والمبادئ والأعمال التي أخذها رجال الكنيسة الرومانية
الكاثوليكية في فرنسا الذين عملوا على أن تزداد سلطة الكنيسة القومية على حساب سلطة
الباباوات، وهذا اللفظ مشتق من الجدلالات التي جرت بين ملوك فرنسا والباباوات في العصور المختلفة .

وكان لما فعلته الثورة سوابق قديمة في القارة نفسها ، فقد طرد اليسوعيون من البرتغال وفرنسا واسبانيا فيما بين سنتي ١٧٥٩ و ١٧٦٧ ، وفي عام ١٧٧٥ ألغى كلمنت الرابع عشر هذه الطائفة نهائياً ، وحوال نفس الوقت ألغى امبراطور النمسا المصلح جوزيف الثاني عدداً كبيراً من الأديرة ، ثم حاول أخوه ليوبولد التوسكاني أن يفعل في ممتلكاته أكثر مما فعل جوزيف ، ولكنه قوبل بمعارضة شديدة .

وبعد الثورة الفرنسية حلت كل من ألمانيا واسبانيا ما هما من أديرة ، ونهجت نهجهما إيطاليا في عام ١٨٧٣ ، وفرنسا في نهاية القرن التاسع عشر .

وفي أمريكا الجنوبية ألغى معظم الأديرة في تواريخ متفرقة . وإن كان قد أعيد احيائها بأساليب مختلفة .

والحقيقة أنه توجد في الضكرة الديرية نواة تجذب قلوب كثير من الناس ، ولها في نفس الوقت قيمة أخلاقية ودينية كبيرة ، ولهذا فإن كل ما تستطيع الدولة أن تفعله ، أو ما يجب عليها أن تفعله ، هو أن تقيد هذه المجتمعات وأن تنظمها تبعاً لنفس المبادئ التي تأخذها الجماعات الأخرى .

وبالمثل لا يزال هذا النظام موجوداً في بلاد غير مسيحية ، ويقال إن الأديرة البوذية في سيلان وفي الصين قد أصابها كثير من التأخر والانحلال ولكنها لا تزال تعج بالزلازل ، ولها عظمتها في اليابان وبورما ، وبوجه خاص في التبت ، ويروى كذلك أنه من بين الثلاثين ألفاً من سكان لhasa الحاليين يوجد ١٠,٠٠٠ راهب .

أما في الهند فإنه من العسير أن تفرق بوضوح بين النساك المتجولين وبين الجماعات المستقرة من الرهبان ، ومع ذلك فإن هذه الجماعات ما زالت كثيرة العدد وغنية في معظم الأحوال ، وترى الحكومة في بعض الحالات أنه لزام عليها أن تتدخل لمنع سوء التصرف في الإيرادات الضخمة لهذه الجماعات .

جمال الدين الشيال